علم اللغة بين ميتافيزيقا الصوت و مادية الكتابة

مقاربة في سيميائيات العلامة الخطية

د.معرف مصطفى
أستاذ فلسفة
جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس

تمهيد :

التفكير حول الكتابة و بالتالي العلامة الخطية الكتابية signe écrit ، يقودنا ولا شك إلى التفكير في إشكالية مكانتها ضمن منظومة اللغة، و كذا في وضعها السيميائي في أفق نظرية المعنى والدلالة ، إذا سلمنا سيميائيا أن التعريف العام الذي يمكن إعطاءه للغة هي أنها " *نسق من العلامات* signes "[1] تقوم من أجل حدوث المعنى .

لا شك ان كلا من الكلام la parole و الكتابة l'écriture ،هما الكلمتين المحوريتين اللتين يمكن أن يبدأ بهما فهم الإنسان، نظرا لتمتع هاتين الكلمتين بدلالة و موقع خاص في المفاهيم التقليدية للغة.

و اللغة، باعتبارها خاصية إنسانية، تمثل " مؤسسة اجتماعية تشير إلى عقد واسع بين الناس"[2] ، و هذا التواضع convention أو العقد الذي يعقده البشر فيما بينهم يهدف إلى التفاهم و التواصل ، إما لسانيا من خلال الكلام الشفوي المباشر، أو من خلال ما يدونه أو يخطه الإنسان كتابيا لأجل حفظ الكلام الذي يزول فور إلقائه، أو بغية نقله إلى أماكن بعيدة عن المكان الذي ألقي فيه، وهو ما يفسر تمكن الشعوب على مرّ العصور من الحفاظ على أثر إنتاجاتهم الدلالية المختلفة*.حيث ارتبط اختراع الكتابة بمرور الإنسان وانتقاله من مرحلة ما قبل التاريخ préhistoire ،إلى مرحلة التاريخ Histoire، اي التاريخ باعتباره تاريخا مكتوبا .

1 - مثالية الصوت و جسدية الكتابة :

إن حركية الفعل الكتابي كوسيلة للتعبير والتواصل ، تهدف أساسا إلى نسخ و تسجيل الكلام، وجراء ذلك يتحدد دور الكتابة المباشر في التواصل، وفي ترجمة الفكر ترجمة مادية خطية على دعامة أو سند أو سطح معين ، هو سند لغة الحروف المكتوبة.

و تبعا لذلك ، نجد أن الكتابة نظر إليها على أنها مجرد تمثيل للكلام ، فهي تعد شفرة code تواصل من الدرجة الثانية، مقارنة باللغة المنطوقة كشفرة تواصل من الدرجة الأولى، نتيجة المقابلة الثنائية العتيقة التي نشأت بين اللغة المنطوقة و اللغة المكتوبة في التقاليد الميتافيزيقية ،و الفلسفية ،واللغوية ، التي تقول بأسبقية وأفضلية الكلام على الكتابة ، حتى أننا نجد أن " المعنى الشائع ينظر إلى الكلام ، على أنه اللغة "[3] نظرا للامتياز الذي يمنحه الصوت و الكلام الشفوي الحي ، رغم أن الكلام ليس هو اللغة، و إنما هو بشكل من الأشكال يمثل " عملية استخدام اللغة"[4].

من مستوى لساني، نجد أن معنى الكلام" يمثل كل فعل صوتي يتمظهر كتقابل مع النسق اللغوي الذي يرجعه ممكنا "[5]. و طبقا لنظرية اللغة لدى دوسوسير De Saussure (1857- 1913) فان اللغة عنده نسق system، أو نظام من الإشارات تعبر عن الأفكار.

يميز دوسوسير بين اللسان البشري Langue، واللغة language، والكلام parole ، فاللسان عنده متعدد الجوانب غير متجانس، و يشمل عدة جوانب في آن واحد كالجانب الطبيعي، النفسي، الوظيفي، زيادة على أنه ملك للفرد و المجتمع، فاللسان يخص الجماعة كذاكرة و خبرة مشتركة، بينما الكلام هو فردي، لذلك نجد في التقسيمات الثنائية dichotomies السوسورية أن الفرق بين اللغة واللسان من جهة، و الكلام من جهة ثانية، هو فرق بين ما هو جماعي و ما هو فردي، و بين ما هو جوهري و ما هو عرضي، لأن " ما يميز اللغة بوجه عام هو كونها تشكل نظاما " [6] أو نسقا . و الكلام كمظهر صوتي للغة الملفوظة، يتبادر كتلفظية على هيئة كلام داخلي، كتلفظ باطني و حديث يرافق الفكر، أو كحوار يسمح بالتواصل بين الناس و يساعد على ظهور المجتمعات الثقافية.

ورغم أن الكتابة تقوم بتسجيل الكلام، إلا أن اللغة المكتوبة يمكنها أن تقابل اللغة الملفوظة عن طريق المفردات، ونتيجة بنية الجمل والعبارات التي قد تكون أكثر تعقيدا، نتيجة الجهد والانتباه الذي يبذل في الكتابة أثناء صياغة النص المكتوب، عكس ما نجده في الكلام.

إن التقليد الفلسفي الذي ينتصر للكلام وللصواتة phonè ، يمتد إلى عمق تاريخ الميتافيزيقا التي انتهت على القول بأن الكلام" هو *أقرب ما يكون إلى المعنى sens ، اللوغوس logos، والأصل origine*" [7] ،وعليه فإن الطبيعة المادية للكتابة ستكون سببا – بحسب نفس تلك التقاليد- إلى نعتها بالقصور

وبالثانوية ، مقابل الصوت والكلام الذين يمكنهما الاستغناء عن الكتابة ، طالما أن المعنى يتم بالفعل من خلال جوانية ومثالية الصوت الحي voix vive ،" إن الصواتة تقع في خارجانية extériorité المادة "[8]، و هذا التمركز الميتافيزيقي سيستمر- كما سوف نرى – في ثنايا المسلمات النظرية و المفاهيمية لعلوم اللغة و اللسانيات تحديدا.

2 - جينيالوجيا الكتابة :

من مستوى مقاربة اشتقاقية نجد أن " *الكتابة écriture ، من اللاتينية scriptura ، من الفعل scribere : écrire*" ،أي كتب ،و خط [9] ، و في اللغة العربية التي هي اللغة السامية ، نجد أن الجذر العربي " كتب" تربط دلالته من جهة إلى الآثار traces التي تخلفها أرجل المشاة على الأرض، ومن هنا قال العرب قديما باقتفاء الأثر كعلامة signe و دليل على وجود الشيء ،أو كإشارة تقود إلى الاهتداء إليه ، ومن جهة أخرى ترتبط دلالة معنى كتب بفكرة جمع الأحرف ،أو جمع الخيول و منه كتيبة أو سرية .

و إذا كان الجذر " كتب" هو الجذر الدلالي الأكثر انتشارا و استعمالا في اللغة العربية، نجد أن هناك جذرا أخرا و هو الزبر و يعني النحت في الحجارة، أو وضعها فوق بعضها البعض من أجل البناء ، و بالتالي فأن فعل "زبر" يحيل بدوره إلى معنى فعل "كتب" كما جاء في القرآن الكريم عن الزابور، الكتاب الذي أوحي إلى داوود عليه السلام، و منه أيضا المزبار أي القلم، و هكذا نجد في العربية أن الجذور اللغوية للكتب و الزبر يشتركان في فكرة الكتابة.

أما في اللغة الفرنسية، فنجد أن فعل كتب écrire ينحدر من المصدر اللاتيني scribère ، و الذي يعني خط أو رسم أشكالا كتابية ، لذلك يسمى الكاتب أو الخطاط أو الناسخ scripteur، و الجذر اللاتيني بدوره يحيلنا إلى الجذر ker/sker الهندو أوروبي الذي يحمل معنى قطع inciser /couper ،و في السنسكريتية sanscrit نجد مفردة krtih التي تعني معنى السكين couteau، و هكذا فالكتابة و من مستوى لغوي اشتقاقي هي حزة Incision[10] ، و هي ذات الفكرة التي نجدها في الإغريقية grapho ،أو في الهندو أوروبية gerbh و تعني " خدش" égratigner ،و في الهولندية rejten و تعني مزق déchirer ،و السويدية rita و تعني رسم déssiner، و أيضا في الجذر السنسكريتي likh الذي يعني الرسم أو الكشط grattage.

هذا التقارب الاشتقاقي لمعنى الفعل كتب écrire أو قطع inciser/ tailler، يدعو إلى الاعتقاد أن كلا من الطين argile و الحجارة pierre ، هما الدعامتين الأساسيتين للكتابة مع بدايات ظهورها، إضافة لهذا، اقترنت الأسماء عند بعض الشعوب، مثل شعب الرون runes، ببعد كتابي دلالي آخر هو السر

و التخفي و الغرابة، كما في كلمة Runar في الإسلندية، التي تعني السر secret أو run أي السر و التخفي، أو كما عند شعب الغالوا Galois في rhin أي السر.

و في استقراء أولى للدلالة الاشتقاقية للكتابة، نلاحظ أن معنى الكتابة من منظور لغوي بحت، لا يحيل مباشرة إلى فكرة أن الكتابة ذات تبعية وصلة بأصوات اللغة، و يمكن القول أن مفهوم الكتابة من هذا المستوى يقودنا إلى استنتاج ثلاث نقط أساسية :

أ- فكرة القطع : couper، inciser، tailler، و هذا يحيل و يلمح إلى الكيفية و التقنية كبعد رمزي في فعل الكتابة.

ب- فكرة الجمع : rassemblage للأحرف أو الخيل أو الحجارة.

جـ- فكرة السر و التخفي : و هو بعد مهم أيضا في الرسوم و المخطوطات الكتابية التي لا تكشف بسهولة عن المعنى الذي تحمله، و هو ما يفسر تأخر فك الرموز للعديد من الكتابات كما حدث مع الكتابة المصرية الهيروغليفية hiéroglyphe ، و تعذر حل العديد من الكتابات الأخرى أيضا إلى يومنا هذا.

بينما و من منظور فلسفي، نجد أن المفهوم العام للكتابة عرف " كتمثيل جرافيكي للفكر المشكل للغة " [11]، و ذلك مهما كان نسقها سواء كان صوتيا phonétique ،أو تصويريا pictographique أو غيره، أي أن الكتابة هي تمثيل الكلام و الفكر عن طريق علامات كتابية، أو خطية اصطلاحية .

الكتابة في التقاليد الفلسفية، هي هذا الما بعد، الذي يأتي لأجل إعادة ما ينتجه الكلام، من خلال العمل على حفظه ،و تسجيله و تخزينه جرافيكيا، فالكتابة *مبدئيا نسق ثانوي*، وهذه الرؤية الفلسفية للكتابة، شأنها شأن التمركزات الميتافيزيقية الغربية ، تنتصر لامتياز الصوت و الدال الصوتي في تصور مفهوم العلامة و المعنى ، في مقابل مادية الكتابة و العلامة الخطية التي هي دال لدال ، أي دال من درجة ثانية.

لقد تم و منذ الانطولوجيا اليونانية ممثلة في أفلاطون ، النظر إلى الكتابة كصدى ضعيف لا يمتلك إلا وجودا مخادعا، يعمل على تكرار لوغوس أصلي يمتلك وجودا حقيقيا، حتى أن أفلاطون كان يعتقد أن اختراع الكتابة لم يعمل إلا على تشجيع الكسل! ، و هو ما يفسر عزوف العديد من فلاسفة اليونان عن الكتابة واحتقار ما هو مادي، مقابل الامتياز الذي اعطوه لمثالية الصوت و حيوية الكلام الحي ممثلا في الجدل المباشر ، الذي يعبر عن لبّ الفلسفة اليونانية.

الكتابة التي هي في عمومها، *تمثيل représentation اللغة الملفوظة بواسطة علامات كتابية signes graphiques* ، سوف تنحدر نتيجة طابعها المرئي الحسي ، والمادي البراني إلى خانة الثانوية ، وهذا الوضع الذي نجد أثره في عمق الإرث الفلسفي الميتافيزيقي الغربي، سيستمر ويتواتر صداه مع مسلمات علوم اللغة، وينسحب ايضا على طروحات العديد من الفلاسفة وموقفهم من الكتابة.

يظهر تاريخ اللغة، كيف أن جوهر تصور العلامة في التقاليد الميتافيزيقية والفلسفية الغربية ، انبنى في جوهره على صوتنة phonétisation الرّمز الكتابي symbole écrit والمنقوشات الكتابية epigraphes ،وهذا التقليد كثيرا ما اصطدم مع نوع من الكتابات لا تخضع لنظام الصوت كما هو حال الكتابة الهيروغليفية أو الكتابة الصينية ، ففي عرف التقاليد اللغوية يظل التفكير في الكتابة كنموذج مرئي خارجي غريبا عن نمط التفكير الفلسفي الغربي، الذي هو تفكير لوغوسي يلتف أساسا حول الامتياز المعقود لمثالية الصوت.

لقد اعتبر الكلام الحي، بعكس الكتابة، ضمن تلك الفرضيات الميتافيزيقية ، الوحيد القادر على المستوى الذهني، أن يعكس الأشياء المجردة من دون إعطائها صبغة مادية أو تجسيمية، وهو ما يشكل مع فرضيات اللسانيات وعلوم اللغة منتهى نظرية العلامة اللسانية، بينما يتراجع تأثير العلامة الكتابية الخطية إلى حدود المادية والثانوية والخارجانية، وهي صفات تحكم على الكتابة البقاء في دائرة الرؤية الفلسفية ، التي هي امتداد وترسيخ للرؤى الميتافيزيقية المتمركزة حول الصوت الذي تعتبره قريبا من المعنى، وتنفر من الطابع المادي والمرئي للكتابة ،التي هي مجرد إعادة لما ينجزه الكلام.

ان الامتياز الذي تمنحه الفلسفة الغربية للصوت والكلام، يعود إلى نموذج تصور الحقيقة المبني على التقسيمات والمقابلات الثنائية التي وسمت التفكير الغربي، في تمييزه بين ماهو محسوس sensible، وماهو ذهني معنوي intelligible ، ومنه المقابلة بين الصوت المثالي والكتابة المادية، لأن امتياز الكلام ينبع أساسا من الفرضيات الميتافيزيقية التي تقول بقرب المعنى من مثالية الصوت الجواني المعنوي، في مقابل برانية ومادية الكتابة التي نظرت لها الفلسفة كمظهر للغة الطبيعية الملفوظة" عن طريق دال signifiant، ذو طبيعة مرئية كتابية أو تصويرية pictographique "[12].

أما اصطلاحيا، فإن معنى الكتابة لا يخرج عن كونه تلك الأداة والوسيلة التي تعمل على حفظ وتخزين الفكر وتسجيل الكلام، إذ لا ينفصل وجودها وتمظهرها المادي المرئي عن بعدها التقني والتجسيدي، باعتبارها " نسق من العلامات التصويرية أو الخطية التي ترتبط بالعلامات الكلامية signes vocaux للغة، و التي تصلح لتمثيلها بشكل أكثر استمرارية و دوام " [13]، وإذا كانت عفوية الكلام و سهولة النطق مضافا إلى ذلك الإيماءات التي ترافقه ، وهي شكل التواصل المتجذر و الطبيعي لدى الإنسان ، فإن الكتابة و على العكس، تتطلب معرفة و دراية و إتقان، و تخضع لضوابط تقعيدية و نحوية، زيادة على متطلبات الممارسة و التمرن .

الإنسان يتكلم، ثم يكتب بعد ذلك فيما هو شائع ، و أسبقية الكلام هذه ،هي التي ستستمر بشكل أكثر تعقيدا و راديكالية مع علوم اللغة، و على رأسها اللسانيات و علم الأصوات phonologie ،التي

تأسست على دراسة الصوت و اعتباره الأساس في قيام علوم اللغة ، ما يؤكد امتداد التمركز حول الصوت أو ما عرف بالتمركز الصوتي phonocentrisme ،أي ذلك التمركز الذي يجعل الصوت شرطا معرفيا و ابستيميا في نشأة اللسانيات، وضرورة عقلية أملتها اشتراطات اللوغوس، الذي بات تأثيره قويا على حقول الميتافيزيقا و الفلسفة و علوم اللغة، هذا اللوغوس عينه هو الذي يقدس مثالية الصوت و يحتقر مادية الكتابة .

الكتابة بهذا، سينحصر وجودها في مجرد إعادة خطية لما أنجزه الصوت بالفعل من خلال الكلام، تماما مثلما صرح بذلك فرديناند دوسوسير مؤسس علم اللسانيات ،الذي لم ير من بد أو ضرورة لوجود الكتابة، إلا لتسجيل جرافيكي للكلام بغية الاحتفاظ به، و إمكانية تكرار ما أملاه الكلام و أنجزه مسبقا بالفعل .

لذلك، و توازيا مع هذا، نجد أن مفهوم الكتابة في ظل تاريخ التجربة العلمية ، منظورا إليه من زاوية ابستمولوجية épistémologique ينحصر في حدود منحها دورا وظيفيا fonctionnel ، و تقنيا technique .

لم تخرج هذه الرؤية بدورها، من الإرث الفلسفي الغربي الذي حدد مفهوم العلم ،و شروط العلمية ، ضمن نفس تلك التمركزات ، إذ ليس غريبا أن تنحدر فرضيات و مسلمات الشروط المعرفية لعلوم اللغة، التي حددت تبعا لذلك إبستيمية مفهوم الكتابة من" عدد متباين من مفاهيم و سيل من الأفكار، و المعتقدات و التماثلات التي تساق نحوها طوعا، كلما أردنا التاريخ للأفكار"[14] .

لذلك فان الكتابة، شأنها شأن العديد من المفاهيم، لم تفلت من هذا الإرث الفلسفي و الميتافيزيقي الذي يتغلغل في عمق العلم و العلمية ذاتها؛ و مفهوم الكتابة بهذا، يتلخص في كونها تقنية وظيفتها التسجيل الغرافيكي للكلام، و حفظ ما ينتجه كتابيا .

3 - الكتابة و تثبيت الكلام:

الكلام المليء بالحضور ، ينبعث منسابا أثناء الحوار لأجل الإخبار، الوصف، الإقناع،الطمأنة... أو حتى إحداث التناقض و المغالطة أحيانا، و نتساءل أنى للكتابة بعد هذا، ان تقبض على الكلام الذي سرعان ما يزول، و هي التي تتدخل دوما في لحظة تبدو متأخرة مقارنة بلحظة حيوية الكلام و سيولته، معتمدة في نفس الوقت أيضا على غياب المتكلم. ألا يمكن نعتها عندئذ، بأنها وسيط لا يمتلك حرارة الإقناع التي ينقلها الكلام الحي ؟ و هل يجب تبعا لذلك، إدانة الكتابة و هي التي اتهمت بأنها الخطر المميت للكلام ، و السجن الذي يجمد الفكر ويكبل طاقته.

إن الكتابة و هي تحاول الإمساك بالكلام الحي، حتى يصبح ضبطه بالتالي قارا خطيا كما في النسق الكتابي الأبجدي alphabétique، تعمل على تثبيته من وجهتين:

أ- انطلاقا من تحليل لغوي، تبحث الكتابة تسجيل صارم لمختلف وحدات الأصواتsons التي تدخل في تكوين الكلمات ، الكتابة كذاكرة ملموسة لحفظ الكلام.

ب- كما تحمل الكتابة – فيما وراء تسجيل الكلمات- قلق النقل الوفي للانفعالات emotions، والنبرات intonations ، والتغيرات الصوتية inflexions التي ترافق لحظة الكلام، فتقوم الكتابة حينئذ بابتكار علامات حذرة، وأخرى خرساء كلية مثل النقط والفواصل، التي تزيد من حيوية النص المكتوب ، مكثفة بذلك ، من ثراء المعاني المخفية التي تتخلله.

إن الكتابة الأبجدية تبدو هنا، كتثبيت وفي لسلسلة الكلام المشكلة من مختلف الأصوات الملفوظة من اللغة، الأبجدية (الألفبائية) تظهر كمرآة مثالية تعكس شفافية وأمانة تسجيل الكتابة، لكل ما يمليه الكلام.

وبالمثل، يساهم الإملاء orthographe بدوره، في تجديد المعنى من خلال بلورته للكلمة بلورة مرئية، إنه يسمح بقراءة إيديوغرافية idéographique إيحائية، تتيح بتفرقة سيميائية كما في الجناس الناقص للكلمات التالية: زجاج verre ، خضرة vert ، نحو أو اتجاه vers ،.....إلخ التي تنطق بكيفية واحدة، غير أن خطية الكتابة تعطي جسما للصوامت consonnes، والصوائت voyelles ، وتمنح صورة للفكر كذلك. وعن طريق عملية القراءة التي تعيد وتمكن الكتابة من التجذر في الكلام، تعطي الكتابة الحياة للنص، مبدية بالتوازي مع ذلك، التشكيلات الصوتية المختلفة التي تكونه ، حتى أن الفلسفة اليونانية ومن مستوى سيميائي، ربطت تعلم اللغة بتعلم القراءة والكتابة توازيا مع تعلم النحو[15] .

الكلام يندثر ويتلاشى، والكتابة تبقى، هكذا كان يقول المثل اللاتيني verba volant, scripta manent ، إذ يستحيل تدارك الكلام بعد إلقائه، أما الكتابة وعلى العكس من ذلك، تمتلك فرصة العودة لمحو وتصويب الكلمة المكتوبة، لأنها ترتكز على سطح خارجي يؤهلها لإمكانية المعالجة والتصحيح والمراقبة ، أو حتى إتلافها كلية متى أريد ذلك " فبينما تتم عملية الكلام في الزمن وتزول بمروره، تأخذ الكتابة من المكان سندا يحفظها"[16]. ومع هذا ، تبدو الكتابة في نفس الوقت هشة ، ومهددة بالزوال فور إتلاف السطح أو السند الذي يحملها، فالوثيقة الكتابية إذا ما أتلفت مثلا، تصبح متعذرة القراءة illisible، أو مبتورة المعنى في حالة ضياع نص من النصوص التي تكون الوثيقة.

4 - فضائية الكتابة:

أن تكتب، هو أن تنتقل دائما بأداة الكتابة من نقطة إلى أخرى ، وهذا الانتقال يتم في المكان ، فالكتابة *نظام سيميائي* مرئي مكاني، أي يرى بالعين ويحتل حيزا في المكان ، إذ أنّ الخط هو الذي يبني معمارية سطح الكتابة، وليس من المصادفة أن نجد ارتباط خطية الكتابة على صفحات الورق ، مع خط وأثر الحرث sillon ، إذ نجد أن كلمة صفحة page تنحدر من اللاتينية pagus التي تعني حقل الزراعة.

تنتشر العلامات الكتابية على سطح كتابي معين، تندرج ضمنه مختلف أشكال الموارد الكتابية مثل : الخشب bois ، الشمع cires ، المعدن métal ، الحجارة pierre ....إلخ، بواسطة الوسائل والأدوات المستخدمة في تحقيق ذلك مثل المنحت pointe، المرقاش pinceau أو القلم stylo وغيرها، أين تتناوب مساحات الفراغ والملاء، البياض والسواد، البروز و النتوءات ، مشكلة حقلا مرئيا كتابيا ، تنتظم من خلال حروف الكلمات ،أو المنقوشات ،أو الصور الكتابية التي تعمل على تنظيم تجانسية الفكر، وربط سلسلة الكلام التي تنبع من صميم اللغة.

الكلمات المخفية التي تشكل اللغة ، تصبح بعد تثبتها مكانيا على الصفحة عبارة عن صور، وآثار مرئية تعبر عن مختلف الأبعاد الانفعالية، الرمزية والسيميائية التي يمثلها الفكر، فالكتابة تولد على سطح، على مكان يبدأ شيئا فشيئا في الامتلاء النقطي والتحول بواسطة وسيلة كتابية، أو طبع ترسم كل حرف ضمن تتابعه داخل سلسلة علامات الكتابة، كما في الكتابة الأبجدية الألفبائية، أين يتم تجميع الحروف بعضها إلى بعض حسب خط كتابي مستمر.

إن تعليم الكتابة في لغة من اللغات، يبين اهمية اتقان جسم الحروف بشكل واضح ومتناسق، فهو يوضح عدد الخطوط التي يتوجب انجازها، حجمها، واتجاهاتها، زيادة على سرعة الحركة حسب أسلوب الكتابة المختار، وشكل العلامات التي تنتظم في كلمات وجمل ، ومن ثم في نص كامل، علما أن قدرة الكاتب على الإبداع تضاف أيضا من خلال انتقائيته لوسيلة وسطح الكتابة، وحرية خياله في ابتكار الخطوط والرسومات البيانية غير المسبوقة، وهو ما يجعل الكتابة أفقا مفتوحا على كل ما هو جديد، خلاق وخارق، وغريب أحيانا كما في كتابة السرياليين.

5 - الكتابة كعلامة مشفرة:

إذا كانت العلامة تعرف على العموم بأنها" كل رمز قادر على تحقيق التواصل بين الناس" [17] ، فإن العلامة الخطية هي العنصر السيميائي sémantique في الكتابة، من خلال قاعدة التواضع المشترك التي تمكن جماعة من البشر من التواصل فيما بينهم كتابيا.

وهكذا فكل كتابة تنبئ عن مفهوم الشفرة code ، وهذا التشفير codage ، كثيرا ما ارتبط في العديد من الميتولوجيات بأنه مجرد هبة don إلهية، وبالتالي فان مثالية الشفرة تأتي من أعلى ، بينما في التقاليد الإغريقية نجد أن الشفرة ترجع إلى أسطورة هرمس Hermes الإله الأكثر انسانية من بين جميع الآلهة، والرسول الذي أعطى مفاتيح تأويل العلامات، وبالتالي حسب هذه الميثولوجيا، فإن شفرة العلامة الكتابية تنحدر من أسفل ، أي من رحم المجتمعات التي تشكلت فيها هذه العلامات.

ان طبيعة كل كتابة ترتبط بالتشفير، وبالتخفي، حتى أننا نجد على سبيل المثال أن شعب الساكسون ، ارتبط لديه مفهوم الكتابة بمفهوم الهمس، لذلك فإن الناسخ scriber كثيرا ما كان يعمد إلى تطعيم كتاباته بتشفير نوعي، يرتكز على انتقاء وإبداع علامات كتابية، يتراوح تمظهرها بين الوضوح والغموض، البساطة والعمق، الظهور والتخفي.

وقد يحدث في بعض الأحيان أن تضيع الشفرة، مما يستدعي البحث عن السبل والإشارات الممكنة التي تقود إلى فك ألغاز الكتابة المجهولة** ، والبحث " في الشروط التي يجب توافرها حتى يكون للكلمات أو الجمل معنى" [18]، وهذا ما حدث مع العديد من الكتابات التي تبقى مطعمة باللغز، بسبب استحالة اختراق وكشف شفرة العلامات الخطية التي تكون تلك الكتابات، فتصمد بذلك محتفظة بشفرتها التي يستمر غموضها ولغزها، مع استمرار تاريخ الإنسان الطويل.

6 - الكتابة والسر:

كل كتابة في عمقها ترتبط بمعنى السر secret ، فهي بمعنى من المعاني فعل اخفاء رسالة أو خطاب، فهي تمثل القدرة على القول من دون أن تسمع، وكل كتابة من هذا المنطلق تمتلك وجهين: وجه ملغز يظهر في المستوى المرئي المباشر للكتابة، ووجه آخر مقروء موجه لمن يمتلك مفاتيح قراءة و تأويل العلامات الخطية.

العلامة التي هي" *كل شيء يمثل شيئا آخر غير نفسه*" [19]، مثلها مثل العلامة الخطية، قد يحدث وأن تكون شفرتها مشوشة أو مضمرة، بقدر يجعل القراءة مستحيلة كما في حالة الرسائل الكتابية الموجهة إلى الآلهة والأرواح، أو كما في حالة الكتابات التي غايتها عسكرية، أو دبلوماسية أو دينية، أين تنحصر قراءة وفك شفرة العلامة الكتابية على بعض المؤهلين والمتدربين على ذلك، وأحيانا تقتصر قراءتها على الكاتب وحده الذي ينفرد بهذا الامتياز، حين يقوم بتحريف الرموز الكتابية، أو ايجازها بشكل مكثف وملتحم، للحد الذي تصبح فيه الكتابة غير معروفة، أين تتخفى فيما وراء الصورة ، أو بفعل السرعة أو بفعل المنوع .

بالموازاة، يمكن للنص المكتوب والمقروء، أن يختصر بشكل يجعله يتبدى شبه لا مرئي، ومثال ذلك نجده في الكتابة الميكروجرافيكية التي تخفي النص، لتطعمه بقيم أخرى للعب ، للسر، للتمويه، جالبة جمالية الحركة الكتابية، ولذة اتقان التمكين لكتابة تضمر معنى عميق.

لا شك، أن العلامة الخطية، سايرت وكيفت طاقتها وأدواتها الجرافيكية، حسب نوع وطبيعة الرسالة التي أريد لها أن تعبر عنها أو ترمز إليها، حينما طورت الكتابة بحسب حاجيات كل كاتب قدرتها على التواصل وعلى حفظ الفكر، وأحيانا على الإحتفاظ بالسر*** كذاكرة أمينة، لا تسلم مفاتيح فكها إلا لمن يمتلك ناصية وحكمة فك ألغاز شفراتها، التي هي انكشاف المعنى على نفسه وعتبة تأويل العلامة الخطية.

وعموما، فإن الكتابة هي الوسيلة تمكن الفكر من أن يصبح مرئيا ، ومن المعنى أن يتخذ شكلا، ومن الكلام أن يتثبت خطيا، والكتابة هي التي تسمح بالحوار مع اللامرئي invisible ، وباستحضار الغائب كما لو كان موجودا.

الكتابة، هي التي تسجل ما يبدو زائدا غير ذي أهمية، وتحفظ ما هو مهم وضروري، وما هو مقدس أيضا، وبهذا فهي تكثف من مجالات استعمالاتها السيميائية، وتنوع من وحداتها الكتابية، وتخلق علاماتها الخاصة بها باستمرار، و ذلك بحسب الثقافة الاصلية التي نشأت وتطورت فيها، وبالتالي فالعلامات الخطية تعكس نمط الثقافة التي تشكلت فيها، وأسلوب التواصل الذي يبتغيه الإنسان، بحسب المستوى الحضاري الذي يصل إليه وقيمة الرسالة التي يريد تبليغها.

الإحالات و الهوامش :

1 - Vendryes, Joseph ; le langage, introduction linguistique à l'histoire, édit : Albin Michek, paris, 1969,p19.

2 - صديق، يوسف، المفاهيم والألفاظ في الفلسفة الحديثة، الدار العربية للكتاب 1976، ليبيا- تونس،ص135.

* يبدي تاريخ الإنسان أن الكتابات التي عرفها الإنسان وأبدعها كانت تميل إلى طابع الثبات النسبي والاستمرارية نظرا لصلابة الطابع الميثولوجي والديني الذي حدد أصولها وهو ما يفسر التحفظ الذي تواجهه محاولات التصرف في العديد من الكتابات المعاصرة التي تواجه صمودا أمام أي تغير في شكل وبنية كتابة الكلمات المتواضع عليها في هذه اللغات، ورغم هذا فإن تاريخ الكتابة يشهد أن الكتابة عرفت تطورا يصل إلى الجذرية أحيانا سيما نتيجة التأثير والاحتكاك بين الشعوب الذي ساهم في انتشارا لكتابات واستلهام بعض الشعوب لكتابات شعوب أخرى وتطويرها، وكرونولوجيا، نجد أن السومريين sumériens و الإيلاميين elamites بخليج الفرس هم أول من عرف الكتابة حوالي 3500 سنة ق.م، تبعهم بعد ذلك عن قرب المصريون والهنود حوالي 300 سنة ق.م، ثم الصينيون 2000 سنة ق.م، أما شعوب المايا والأزتك المعزولين في القارة الأمريكية فقد عرفت الكتابة مع بداية القرن الأول الميلادي.

3- Dubois , Jean et autres , 1973 dictionnaire de linguistique ; edit ; librairie larousse ; paris, p358.

4- يودين روزنتال وآخرون ، الموسوعة الفلسفية ، ترجمة سمير كرم ، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت ،1985 ،ط 5،ص392 .

5- Auroux.S, encyclopédie philosophique universelle,T2,les notions philosophiques, PUF;, 2ème édition , 1998 ,paris, p743 .

6 - تودورف وآخرون، المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث، ترجمة عبد القادر قنيني، دار أفريقيا، ط2 ،دت،ص10.

7- Auroux.S, encyclopédie philosophique universelle, op cit,p743 .

8- ibid , p743.

9- Baraquin ,Noëla ,et autres, dictionnaire de philosophie, édit: Armand colin, 2éme édition2000, paris, p89.

10- Jean Calvet,Louis. Histoire de L'écriture, édit : Plon, 1996 , paris, p25.

11- Durozoi,Général et andré roussel ; dictionnaire de philosophie, édit ; Natan, 1990, paris, p104.

12- Greimas. A.J, J. Courtes ; Sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage, T1, édit : Hachette,1979, Paris, p115.

13- Mounin, Georges ; 1974 Dictionnaire de linguistique, édit :PUF ;,1ère édition, 1974, Paris ,p120.

14- فوكو، ميشال،حفريات المعرفة ،ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب1986،ط1،ص61.

15 - ينظر: توسان، برنار، ماهي السيميولوجيا، ترجمة: محمد نظيف، دار أفريقيا الشرق1994، ط1،ص37.

16 - بركة، بسام علم الأصوات العام، مركز الإنماء القومي، بيروت، دت/ دط،ص151.

17- Vendryes, Joseph ; le langage, introduction linguistique à l'histoire, op cit, p19.

**على سبيل المثال يعود الفضل في فك لغز الكتابة الهيروغليفية وقراءتها déchiffrement إلى الفرنسي جون فرانسوا شامبوليون J. F. Champollion (1790، 1882) الذي استطاع أن يظهر أن المبدأ الصوتي principe phonétique يشكل عمق الكتابة المصرية الهيروغليفية من خلال مقارناته التي أجراها على حجر الرشيد rosette ، اكتشف هذا الحجر المنقوش ضابط فرنسي إبان الحملة الفرنسية على مصر سنة 1799، وهذا الحجر عبارة عن مرسوم ملكي صدر في مدينة منف أصدره الكهان تخليدا لذكرى بطليموس الخامس Ptolémée وكتب النص المنحوت على الحجر بثلاث لغات: الهيروغليفية والديموطيقية والإغريقية.

18 - فهي زيدان، محمود ، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربيةن بيروت1985، دط ،ص95.

19- Mounin, Georges ; 1974 Dictionnaire de linguistique, édit :PUF ;,1ére édition, 1974, Paris, p299.

***إن مغامرة الكتابة ، تترجم رحلتها التي سايرت مختلف الحقب والأزمنة وكذا مختلف التشكيلات الكتابية والمواد التي كانت سندا لها مثل المخطوطات اليدوية manuscrits ، ورق البردىpapyrus ، وغيرها وكلها تعكس التنوع الثقافي للكتابات الغنية بالمعاني، وبالألغاز والغموض أحيانا الذي يدعو إلى التساؤل عن طبيعة وقصدية التعبيرات الخطية التي أرادت تلك الشعوب حفظها جرافيكيا وتسريب كل أنواع الرسائل التي تدعو طبيعتها الغامضة أحيانا إلى التساؤل والدهشة لأجل تحليل وقراءة ما تريد إبلاغه تلك الكتابات، مثل كتابات ملحمة جلجامش البابلية التي ذكر فيها الإله نبو Nabu *حامل إزميل الكتابة*.